فلسفة التعليم والتربية

لا يقدر الانسان ان يعمل عملاً ما لم يكن عارفًا طريقة ذلك العمل لان العمل غرض مطلوب وأعضاء الانسان وآلاته وسائط للبلوغ الى هذا الغرض فلا يستعملها ما لم يكن عارفًا انها تبلغه اليه. وهذا يظهر في الاعمال الطفيفة كما يظهر في الاعمال العظيمة. فانا الآن اكتب ويكاد القلم يقع من يدي لشدة برد الصباح فاذا فركتها بالاخرى زال البرد منها وشعرت بالدفء. ولو هرأ البرد يدي وتقشرت فاراد الجرّاح قطعها لأحضر آلات الجراحة والمبخ والادوية المضادة للفساد وجرى في قطعها على اسلوب مركّب كثير التعقيد. فمعرفتي ان الفرك يدفئ يدي أمّا انها حاصلة من اختباري السابق واختبار غيري او من علم بطبيعة اعضاء البدن ووظائفها ودورة الدم فيها الى غير ذلك مما هو مسطور في كتب الفسيولوجيا والاولى معرفة اختبارية والثانية معرفة علميّة واما عمل الجرّاح فنتيجة معارف علميّة وما المعرفة العلميّة سوى مجموع اختبار البشر وقد تنظّم وتنسّق حتّى استُنتجت منه قواعد كليّة. والفرق بين المعرفة الاختبارية والعلميّة ان الاولى ضيقة النطاق غير مضطردة الاحكام والثانية شاملة في مدارها مضطردة في احكامها

واذا اتسع نطاق العمل وبني على قواعد لا تحصل الاّ بالدرس سُمّي صناعةً بعد ان كان عملاً بسيطًا. فالطبخ مثلاً كان عملاً بسيطًا لمّا كان مقتصرًا على شواء اللحم وسلق الحبوب ثم صار صناعة كثيرة التعقيد بما استُنبط من الوان المآكل وهذه الصناعة لا تحصّل الاّ بالدرس والتمرين. وكذلك الفلاحة فانها كانت ولم تزل في اماكن كثيرة عملاً بسيطًا يقتصر على شق الارض وزرع البزور فيها وحصدها حينما تنضج اما الآن فقد صارت صناعة كبيرة واستخدمت علومًا أخرى كالطبيعيات والكيمياء والنبات والفسيولوجيا. وكذلك الطب كان معرفة اختبارية فصار صناعة علميّة لا تتقن الاّ بالدرس والتنقيب سنين كثيرة

ويظهر الفرق بين المعرفة الاختبارية والمعرفة العلميّة اذا قوبلت الواحدة بالأخرى في فرع واحد كما في صناعة التطبيب فان ما يعرفه الانسان من هذه الصناعة باختباره الشخصي لا يحسب شيئًا بالنسبة الى ما يحصله الطبيب الذي درس هذه الصناعة درسًا قانونيًا ومارسها زمانًا طويلاً ولذلك قُسمت الصنائع الكبيرة كالهندسة والفلاحة والطب الى قسمين علمي او عملي ونظري وعملي وكلّ منهما يساعد الآخر ولا يغني عنه فالطبيب الذي درس الطب درسًا علميًا فقط ولم يمارسه قط لا يركن اليه كما لا يُركن الى الذي مارس هذه الصناعة

بدون ان يتعلّم اصولها وقواعدها . وكذا الفلاّح الذي درس علم الفلاحة ولم يمارسهُ قط لا يركن اليهِ في اتقان الفلاحة كما لا يركن الى الفلاّح الذي لا يعرف شيئًا من علم الفلاحة والعلوم التي يبنى عليها . والذي بنى الصناعة على العلم يسير في صناعتهِ على هدًى حتّى اذا عرضت لهُ اوجه لم تكن في حسابهِ عرف ان يتدبّر فيها لانهُ يعرف كليّاتها فيردُّها اليها

واذ قد تمهّد ذلك نقول ان التعليم صار في هذا الزمان صناعةً علميّة بعد ان كان معرفة اختبارية بل صار صناعة من اكبر الصنائع واجلها غاية لان غايتهُ لا تقل عن تربية نوع الانسان جسدًا وعقلاً ونفسًا حتّى يصير اهلاً للغاية التي خلق لاجلها . ولا يذهب عن القارىء ان ادباء البشر مختلفون في الغاية التي خلق الانسان لاجلها ولكن المعلّم لا يلتفت الى اختلافاتهم واسايدهم ولا يترك التعليم والتربية الى ان يجمعوا على غاية واحدة بل يقصد في التربية تأهيل الاولاد لان يعيشوا عيشة الصحة والسعادة والفضيلة . وانت تعلم ان ذلك يتناول تربية الجسد والعقل والعواطف وفي كلٍّ منها من التركيب والتنوّع اكثر ما في اعظم الاعمال الهندسيّة والطبيّة . فان كانت المعرفة الاختبارية لا تكفي لانشاء السكك الحديدية ولا لتطبيب الاجسام المريضة فبالاحرى لا تكفي لتربية الابدان والعقول والعواطف ناهيك عن ان قوى الانسان الجسدية والعقليّة والادبيّة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطًا متينًا على اساليب شتّى وفيها امور عموميّة يشترك فيها كل احد وامور خصوصيّة يستقلُّ بها كل واحد عن غيرهِ حتّى قلما يتيسر للمعلم تدريبها كلها بمجرّد ما يعرفهُ من المعرفة الاختبارية . ولذلك اذا انتُقدت طرق التعليم القديمة وُجدت غير وافية بالغرض بل مضرّة من اوجه كثيرة . وما قيل في طرق التعليم القديمة يقال في كتب التعليم القديمة فان ضررها في كثير من الاحيان اكثر من نفعها

وكما ان الطبيب لا يتقن صناعة الطب ما لم يتقن علم التشريح والفسيولوجيا وفعل الادوية كذلك المعلم لا يتقن فن التعليم ما لم يعلم القواعد التي يرجع اليها في تربية العقل والجسد . وهذه القواعد متضمنة في علمين جليلين الفسيولوجيا اي علم وظائف اعضاء البدن والسيكولوجيا اي علم وظائف قوى العقل فان الاول منها يتضمن القواعد الصحيّة وهي اساس التربية الجسدية والثاني يتضمن القواعد العقليّة التي هي اساس التربية العقليّة . ويصعب على مَن لم يدرس هذين العلمين وعلاقتهما بالجسد والعقل ان

يعرف لزومها لمن اخذ على نفسهِ تربية نوع الانسان كما يصعب على الطبيب الذي تعلّم صناعة الطب باختبارهِ واختبار اجدادهِ ان يسلّم بلزوم درس الطب والعلوم المتعلقة بهِ على اساتذة هذه الصناعة . نعم ان من الاطباء الذين لم يدرسوا الصناعة على اربابها مَن علّمهُ الاختبار ودرّبهُ الجد والاجتهاد حتّى نجح في عملهِ اكثر من كثيرين من الذين درسوا هذه الصناعة سنين عديدة وكذلك نجح كثيرون من المعلمين وارشدوا تلامذتهم في طرق الهدى جسدًا وعقلاً وهم لا يعلمون ان التعليم صار علمًا باصول مع ان كثيرين من الذين درسوا علم التعليم لم ينجحوا في ممارستهِ

قلنا ان علم التعليم مبنيٌّ على علمين كبيرين علم الفسيولوجيا لمعرفة وظائف اعضاء الجسد وكيفيّة اتمامها وعلم السيكولوجيا لمعرفة قوى العقل وكيفيّة تقويتها وتهذيبها . والعلم الثاني ألزم من الاول لصناعة التعليم لان التعليم يتناول تربية العقل لزومًا وتربية الجسد ضمنًا لما بين العقل والجسد من الارتباط . وليس كلهُ لازمًا للمعلم على حدٍّ سوى بل بعض فروعهِ ألزم من بعضٍ الاّ انهُ لا يصح درس بعضها واهمال البعض الآخر لانها مرتبطة بعضها ببعض بل يجب ان يكون للمعلم الملمام بكل فرع منها اذا اراد ان يجري في التعليم على اسلوب علمي قانوني قاصدًا بهِ تربية القوى العقليّة . ولكنّ كثيرين من المعلمين يقصدون بالتعليم افراغ المعارف العلميّة في اذهان الطلبة وهذا جميد في ذاتهِ ولو لم يفِ بكل غاية التعليم ولكن معرفة قوى العقل وشرائعهِ تفيد في ذلك ايضًا كما تفيد في تهذيب العقل . ومهما حصّل المعلّم من المعارف العلميّة طبيعيّة كانت او عقليّة لا تغنيهِ عن المعارف الاختبارية لان نسبة الاختبار الى صناعة التعليم نسبة العمل الى العلم في غيرها من الصناعات

وقد ادرك الاوربيون والاميركيون هذه الحقائق منذ عهد غير بعيد وجعلوا التعليم صناعة وانشأوا مدارس لتعليم الطلبة كيفيّة التعليم وعينوا اوقاتًا في السنة يجتمع فيها المعلمون الذين لم يدرسوا هذه الصناعة في مدارس مخصوصة تُتلى عليهم الخطب المتعلقة بهذا الموضوع ارشادًا لهم لاتباع الطُرُق القانونيّة في تعليم الطلبة وتهذيب عقولهم فعسى ان يقتدي بهم جميع المشارقة كما اقتدت بهم الحكومة المصرية

يقال ان طول اسلاك التلغراف في الولايات المتحدة الاميركيّة مليون ميل وهي كافية لأن تحيط بالارض اربعين مرة